

## العلاقات والجماعات الاجتماعية في المجتمع الافتراضي

• يصرف حاج

• جامعة جيلالي ليايس - سيدي بلعباس - hadj.sic@gmail.com

**المخلص:** يعتبر موضوع العلاقات والجماعات الاجتماعية في المجتمع الافتراضي من المواضيع المهمة التي حظيت باهتمام الباحثين والمفكرين في علم الاجتماع وعلوم الإعلام والاتصال، وهذا بعد التطور الذي شهده النصف الثاني من القرن العشرين في مجال تكنولوجيا المعلومات وفي مقدمتها شبكة الانترنت، يعكس هذا الاهتمام مدى رغبة هؤلاء في تقديم تفسيرات علمية يكشف من خلالها عن درجة تأثير التطور التقني على بنية ونسيج المجتمع، ودوره في بناء العلاقات بين الأفراد وتشكيل الجماعات الاجتماعية الافتراضية في ظل تزايد الاعتماد على مواقع التواصل الاجتماعي واستخدامها كآلية من آليات التفاعل بين الأفراد.

**الكلمات المفتاحية:** العلاقات الاجتماعية، الجماعات الاجتماعية، المجتمع الافتراضي، شبكات التواصل الاجتماعي، مواقع التواصل الاجتماعي.

**Résumé :** Le thème des relations et communautés sociales dans la société virtuelle, est considéré parmi l'un des sujets les plus importants qui ont attiré l'attention des chercheurs en sociologie et en communication, suite au progrès technologique dans les domaines de communication et de l'information depuis la seconde moitié du XXe siècle. L'avènement d'Internet, nouveau territoire électronique ont conduit à l'émergence de nouvelles formes de sociabilité, en rupture radicale avec les cadres spatio-temporels traditionnels. Ce dispositif socio-technique de communication par ordinateur offre à l'individu un nouvel espace d'interaction sociale permettant le développement de relations sociales originales et aboutissant à la création des nouvelles formes de lien social.

Cet article évoquera les différentes formes d'appropriation de techniques pour développer de nouvelles formes des relations sociales entre les acteurs sociaux, l'irruption de virtuel dans la vie des communautés, et le retour au tribalisme à travers la constitution de communautés virtuelles.

## مقدمة

يمثل البعد التكنو- اجتماعي للعلاقات والجماعات الاجتماعية الافتراضية أحد أهم الأبعاد التي يمكن أن تساعد علماء الاجتماع على فهم وتفسير كيفية تطوّر و سيرورة المجتمع، انطلاقاً من كونه يمثل نقطة تقاطع مشتركة بين تخصصين-علم الاجتماع وعلوم الإعلام والاتصال- يهتمان معاً في بعض جوانبهما بدراسة أساليب وآليات التفاعل الاجتماعي بين الأفراد. تعاطت أهمية هذا البعد بعد التطوّرات المتسارعة في تكنولوجيا المعلومات، بشقيها المادي والمعنوي، التي مكّنت من إثراء التواصل الإنساني بين الأفراد وتعزيز العلاقات بينهم، بما لا يدع مجالاً للشك في أن التحوّل التقني الذي امتدت تأثيراته إلى كل ما هو إنساني واجتماعي قد ساهم بدرجة كبيرة في تأسيس مجتمع افتراضي أصبح يُستغلّ فيه على مواقع التواصل الاجتماعي كآليات مستحدثة لبناء العلاقات بين الأفراد وتشكيل الجماعات الاجتماعية في البيئة الرقمية.

من هنا بدأت محاولات جادة من قبل الباحثين لدراسة انعكاسات التطوّرات التكنولوجية على الحياة الاجتماعية، وكان من جملة القضايا البحثية التي تم تناولها تلك المتعلقة بكيفية انتقال الحضور الاجتماعي من العالم الفيزيائي أو المادي الملموس إلى عالم افتراضي يعتمد في هيكلته و بنائه على التقنية الحاسوبية بكل ما تحمله من تعقيد، وبدأت تثار تبعاً لذلك تساؤلات عديدة حول طبيعة وآلية التواصل و التفاعل الإلكتروني بين الأفراد، وتأثير هذا الحضور على بناء العلاقات والجماعات الاجتماعية بمختلف صورها و أنماطها عبر شبكة من الاتصالات الرقمية، وانعكاسات ذلك على النسيج الاجتماعي التقليدي الذي ألف علماء الاجتماع التعامل معه لفترات طويلة.

سلطت الأبحاث في هذا المجال الضوء على مؤشرات أولية أفصحت عن إقبال وتجاوب كبيرين للأفراد مع مواقع الشبكات الاجتماعية على الويب، وأصبح هذا الإقبال يتضاعف يوماً بعد يوم، بما يشير إلى اتساع محيط هذه الشبكات وتنوّع نسيجها، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار احتمال التواجد المتكرّر للمستخدم على أكثر من موقع من هذه المواقع ، وديمومة هذا الحضور الذي ساعد على تكثيفه التطوّرات التي حدثت على مستوى الحوسبة النقالة كما ونوعاً، بحيث أصبح الاتصال بين الأفراد يتم من خلال شبكة تعتمد معماريتها على تطبيقات وبرمجيات ونظّم تشغيل متعدّدة، ترتبط فيما كل من الحواسيب الإلكترونية، حواسب الجيب، حواسب الكف ، الهواتف النقالة والألواح الإلكترونية ، الأمر الذي مكّن بدوره من تفاعلهم مع بعضهم البعض في أي وقت ومن أي مكان دون أي اعتبارات للحدود الجغرافية و الزمانية.

تعدّ مواقع التواصل الاجتماعي مثل *التويتير* و *الفيسبوك* إحدى تمثّلات الانتقال إلى العالم الرقمي واستخدامه كفضاء جديد للتواصل، و نظراً لاعتمادها على آليات مستحدثة لإدارة عمليات الحوار، النقاش والتدوين بكل أشكاله المدوّن، المرئي والمصوّر، أنتجت هذه المواقع فضاءً موازياً للفضاء التقليدي، لا يقتصر دوره على تعزيز العلاقات التقليدية فحسب، وإنما يتجاوزه إلى خلق علاقات وبناء جماعات اجتماعية ذات نمط

جديد، وهذا ما مهدّ الطريق للحديث عن التحليل السوسيولوجي للجماعات الاجتماعية التي تنشأ في العالم الافتراضي من حيث البناء والوظائف والعمليات الاجتماعية التي تتم داخلها.

بناءً على ذلك يمكن طرح التساؤلات التالية:

1. كيف انعكس التطور التكنولوجي على بناء ووظائف الجماعات الاجتماعية في العالم الافتراضي؟
2. ما هي دوافع الانخراط في الجماعات الاجتماعية الافتراضية؟
3. كيف يؤثر استخدام الأفراد لشبكات التواصل الاجتماعي في العالم الافتراضي على العلاقات والجماعات الاجتماعية في العالم الفيزيائي؟

### 1. العلاقات والجماعات الاجتماعية من منظور علم الاجتماع:

يمكن التمييز في علم الاجتماع بين عدّة مفاهيم تتداخل وتتشابه مع مفهوم الجماعة، مثل التجمع، الفئة الاجتماعية، والجماعة بمفهومها الإحصائي. فالشكل الذي ينتج عن التجاور المكاني لبعض الأفراد دون أن يحدث بينهم تفاعلاً، يمكن أن يطلق عليه "تجمعا"، كما يمكن للأفراد أن يتشابهوا من حيث الدخل أو السن أو المهنة أو الهوية لكنهم لا يكونون جماعة بمعناها السوسيولوجي، إذ أن تجمعهم هذا لا يمثل سوى فئة اجتماعية أو إحصائية ذات أبعاد محدّدة، أما مفهوم الجماعة بمعناها الإحصائي فيشير إلى العدد بغض النظر عن نوعية المكوّنين له<sup>(1)</sup>.

غير أن هذه الأشكال قد تتحوّل كلها إلى جماعات اجتماعية عن طريق التفاعل بين أفرادها، بين المتجاورين في المكان في حالة التجمّع عندما يقومون بأعمال مختلفة تدوم لفترة معينة، ينشأ عنها تنظيم اجتماعي على درجة معينة من الدقة والثبات، أو بين أفراد فئة اجتماعية ما عندما ينخرطون في علاقات معينة ويشكّلون جماعات ذات أسلوب حياة خاص بحيث يشعرون بوضع اجتماعي متميّز عن أوضاع غيرهم من الفئات الاجتماعية الأخرى.

بناءً على ذلك يمكن القول أن اعتماد الجماعة على أسلوب المواجهة في العلاقات التي تربط أعضائها أو ما يطلق عليه "علاقات المواجهة" هو الذي يضيف عليها طابعها الاجتماعي، وقد تتعدّد داخل جماعة معينة الأمر الذي ينتج عنه تشكل علاقات فرعية، يتميز كلٌّ منها بطابع معين، إضافة إلى وجود نوع متميّز من التفاعل والتنظيم داخلها. فالجماعة الفرعية هي مجموعة صغيرة من الأعضاء الذين يشتركون بتفاعلاتهم وبالعلاقاتهم المباشرة مع أعضاء جماعات فرعية أخرى حتى تتكوّن الجماعة الاجتماعية ذات المصالح والأهداف الكبرى<sup>(2)</sup>.

من هذا المنطلق ركّز علماء الاجتماع على أهمية العلاقات الاجتماعية والتفاعل الاجتماعي في دراستهم للجماعات الاجتماعية، فالحياة الاجتماعية حسّهم هي وحدة تتكوّن من عدد من الأفراد يتصلون ببعضهم البعض، ويقومون بأدوار معينة وهذا ما يخلق تفاعلاً مشتركاً ومستمرّاً ينتج عنه استجابة لمؤثر واحد<sup>(3)</sup>.

فالعلاقات الاجتماعية باعتبارها "نسق معين وثابت يشمل طرفين، تربطهم مادة أو مصلحة أو اهتمام معين أو قيمة معينة تشكّل قاعدة لتفاعلهم" حسب ما ذهب إليه *زنانيكي* (4)، تعدّ مدخلاً مهماً لتعريف الجماعة من وجهة نظر سوسولوجية، ونلمس هذا الطرح في التعريف الذي صاغه كل من *بنيت* و *مالفين* *تومين* حينما أشارا إليها على أنها: "أولئك الذين يمكن تحديدهم بالتفاعل الثابت و المباشر اتجاه أهداف عامة، مستخدمين اتفاقاً على وسائل معينة لبلوغ تلك الأهداف" (5).

كما ذهب *ماكس فيبر* إلى القول بأن "الجماعة الاجتماعية هي نسق من العلاقات الاجتماعية، يترابط الأفراد فيه بوحدة من الشعور و الإحساس العاطفي و بوحدة المصالح، ويشتركون في ثقافة معينة تحدّد لهم أدوارهم الاجتماعية والمستويات التي تميّز أعضائها عن غيرهم من الأعضاء" (6).

العلاقات الاجتماعية لا تنشأ من الفراغ ولكن هناك كوامن تشكّلها يمكن إنجازها فيما يلي (7):

- أ. الإرضاء الذاتي: يطوّر الأفراد علاقاتهم الاجتماعية من خلال إشباع حاجات ذاتية تخدم كل طرف مشترك في العلاقة، إذ يجدون أنفسهم متمتعين بها، ويرغبون بإنمائها وتطويرها.
- ب. الأهداف و المصالح المشتركة: تؤدي الأهداف و المصالح المشتركة إلى تقارب المشتركين في عملية التفاعل الاجتماعي، كما تساهم في بناء قاعدة أساسية لعلاقاتهم القائمة. فهم يهدفون إلى التعاون والتنسيق فيما بينهم لإنجازها وتحقيقها بغض النظر عن درجة اهتمامهم ببعضهم البعض.
- ت. الالتزامات و التوقعات: بغض النظر عن درجات الاحترام و الأهداف المشتركة التي تربط الأفراد المشتركين في عمليات التفاعل، يتمسك كل طرف بالالتزامات و توقعات يشعر بها الطرف الآخر، مما يؤدي إلى تكوين علاقة اجتماعية فيما بينهم.
- ث. التساند المشترك: تضمن العلاقات الاجتماعية تسانداً بين عناصر الحياة الاجتماعية الواحدة مع الأخرى وبصورة خاصة عند المجتمعات المعقّدة الهيكل كالمجتمعات الصناعية و الرأسمالية المتقدّمة، التي تنتج عنها علاقات اقتصادية لا تسبقها معرفة اجتماعية أو قرابية.

## 2. نظرية العلاقات الاجتماعية

تقوم النظرية السوسولوجية للجماعات على ثلاثة اتجاهات، الاتجاه الشكلي، الاتجاه النفسي و الاتجاه الوظيفي:

الاتجاه الشكلي: يهتم هذا الاتجاه في علم الاجتماع بدراسة العلاقات الاجتماعية دراسة فلسفية مجردة، مركزاً على الناحية الصورية المتعلقة بطبيعة العلاقات في حدّ ذاتها بعيداً عن مادتها وظواهرها المختلفة وصورها المتعدّدة والقوالب التي تتشكل فيها. يعدّ كل من *فرديناند تونيز*، *جورج سيمل*، *فيركاندت* و *فون فيز* من بين رواد هذا الاتجاه، ففي كتابه "الجماعة و المجتمع" يرى *تونيز* أن التجمع إما أن يكون جوهر فكرة الجماعة، و إما أن يفهم على أنه تصوّر بالقوة يتحقق بطريقة آلية، وبالتالي يكون مرادفاً لمفهوم المجتمع (8).

أما جورج سيمل، فيرى أن موضوع علم الاجتماع هو دراسة العلاقات الاجتماعية في صورتها الخالصة، بمعنى دراسة أشكال التفاعلات الاجتماعية المتبادلة التي تحدث في كل ميادين الحياة الاجتماعية، فعلم الاجتماع (الشكلي) بهذا المعنى لا يدرس الحقائق الاجتماعية المادية وإنما يركّز على الوظيفة التجريدية المقتصرة على الوصول إلى أشكال العلاقات الاجتماعية، ومفهوم الشكل حسبه يستوجب تجريد علاقة الأشخاص ببعضهم البعض من الأهداف والغايات التي يسعون إلى تحقيقها والامور التي يفكرون فيها.

يؤدي بنا التركيز على شكل العلاقات الاجتماعية إلى القول بأن أحد أشكالها قد يتكرّر لدى العديد من الجماعات، عاشوا في فترات زمنية مختلفة وسعوا إلى تحقيق غايات متباينة، وبالتالي يصبح مفهوم علم الاجتماع مرادفاً لتلك العناصر من الحياة الاجتماعية الثابتة نسبياً التي يتميّز نمطها عن محتواها.

الاتجاه النفسي: يحاول هذا الاتجاه التعبير عن ظواهر المجتمع على ضوء علم النفس، خاصة علم النفس الاجتماعي، ويعدّ كل من يونج، البورت، مارتن، النيوت و بوجاردس من بين الباحثين الذين ساهموا في تحليل العلاقات الاجتماعية من وجهة نظر نفسية.

في هذا الصدد يرى تشارلز هورتون كولي أن كل شكل للتنظيم الاجتماعي إنما يتكوّن من خلال عملية تفاعل متصلة الحلقات، ويتحدث عما يسميه بالـ "نحن" أو الذات الجماعية التي تعدّ شكلاً من أشكال نمو "الأنا"، يتحقق بتوفر شروط معينة أهمها عضوية الفرد داخل جماعة بعينها، يسود التعاون بين أعضائها كما يسود التعارض بينها وبين غيرها من الجماعات، وكما أن الأنا يعتمد في ارتقائه على ممارسة التحكم في أفعال الآخرين مما يمكنه من الشعور بامتلاك هذه الأفعال، كذلك الـ "نحن" يعتمد على الشعور بما يشبه الملكية المتبادلة بين الأنا والآخرين، ويمكننا أن نتصوّر على هذا الأساس عدداً من الذوات الجماعية يساوي عدد الجماعات التي يدخل الفرد كعضو فيها.

الاتجاه الوظيفي: يستمد هذا الاتجاه مبادئه من ثلاثة اتجاهات، تشكل في مجملها، علم الاجتماع، علم النفس والأنثروبولوجيا الاجتماعية، وتتجسد النزعة الوظيفية بصورة واضحة في أعمال جورج كاسبار هومانز، حيث نظريته الهامة في الجماعات وأسس التفاعلية وأهميتها في عملية التساند الوظيفي الخاص بالوحدات الكبرى، تلك النظرية التي تبرز الجماعة ككل عضوي أو نسق اجتماعي، يحيا في بيئة معيّنة معتمّدة في تحليلها للسلوك الجماعي على عدّد من العناصر المتبادلة الاعتماد كل على الآخر، بحيث تنشأ العلاقات بين عناصر النسق نتيجة تطوّر النسق نفسه خلال فترة زمنية معينة.

عناصر السلوك في نظرية هومانز هي الإحساس، التفاعل، النشاط والاعتماد المتبادل بينها، ويركّز هذا الباحث على النسق الداخلي، أي التفاعل بين أعضاء الجماعة، وهنا تظهر النزعة التفاعلية في هذه النظرية.

## 3. بناء العلاقات الاجتماعية في العالم الافتراضي

في كتابه حول المجتمع الافتراضي الذي صدر عام 1993، صاغ الباحث والكاتب الأمريكي هاورد راينغولد هذا المصطلح مشيراً من خلاله إلى عالم اجتماعي يتفتح في الانترنت ليصبح فسيحاً للملايين من مستخدمي شبكة الانترنت، تتفاعل فيه الشخصيات الخفية الحقيقية في جو اجتماعي له مواصفاته الخاصة التي تشبه كثيراً المواصفات الحقيقية في الحياة الطبيعية<sup>(9)</sup>، وهو بذلك يعبر عن "كل حالة ذات صلة بالفضاء التخليقي بشقه المادي المتمثل في إبداع سبل جديدة في هندسة تكنولوجيايات افتراضية، وبشقه المادي الذي يضم أنشطة عالمنا الواقعي المعتاد أو في إمكانه أن يضمها جميعاً، ويضم أشياء جديدة"<sup>(10)</sup>.

كما يمكن تعريفه على أنه: "جماعة من الأفراد تربطهم اهتمامات مشتركة ولا تربطهم بالضرورة حدود جغرافية أو أواصر عرقية أو قبلية أو سياسية أو دينية، يتفاعلون عبر وسائل الاتصال ومواقع التواصل الاجتماعي الحديثة ويطورون فيما بينهم شروط الانسحاب إلى الجماعة، وقواعد الدخول والخروج وآليات التعامل والقواعد والأخلاقيات التي ينبغي مراعاتها"<sup>(11)</sup>.

تنوّع المجتمعات الافتراضية حسب هذه التعاريف وفق عاملين رئيسيين، التفاعلات الاجتماعية والتكنولوجيا المستخدمة، يتحدّد الأول - التفاعلات الاجتماعية- من خلال إطار مترابط العناصر من الأغراض، الأهداف والحاجات المشتركة بين الأعضاء، والقواعد والسياسات المتبعة، والعادات والأنماط التي تُفرز من خلالها.

أما بخصوص التكنولوجيا المستخدمة فهي تطوّر المجتمعات وتنمذجها في أشكال معيّنة وفقاً لمرحلة التطوّر التي يشهدها المجتمع، فالمجتمعات التي ظهرت في البيئة الافتراضية في سنوات الثمانينات مثلاً تختلف عن تلك التي تنتشر اليوم على شبكة الانترنت بشكل يوحى باختلاف التوجهات المخطط لها، والأهداف والخصائص والمواصفات التي تنوّع بدورها بتنوّع التكنولوجيا المستخدمة، وحتى على مستوى النشأة والتطور، وعلى هذا المستوى نلاحظ بأن البرمجيات المتشابهة تساعد على تطوير مجتمعات متشابهة إلى حدّ كبير.

تقوم المجتمعات الافتراضية في أغلب الأحيان على الاختيار، كما أنها تمتلك وسائل تنظيم وتحكّم لضمان الخصوصية والسرية، تكون مفروضة من قبل القائمين عليها، كما يمكن للأفراد أنفسهم ممارسة الحجب أو التبليغ عن المداخلات والمواد غير اللائقة أو غير المقبولة؛ في مقابل ذلك تتميز بدرجة عالية من اللامركزية، تنتهي تدريجياً بتفكك مفهوم الهوية التقليدي، بما في ذلك مفهوم الهوية الشخصية، لأن أعضاءها عادة ما ينخرطون فيها بأسماء وهويات مستعارة، ووجوها ليست وجوههم الحقيقية، إضافة إلى امتلاك بعضهم أكثر من حساب يعكس شخصية مختلفة في كل مجتمع ينخرط فيه، الأمر الذي يعزّز من فكرة تعدّد هويات العضو الواحد داخل هذا النوع من المجتمعات، كما تتميز بالمرونة وانحياز فكرة الجماعات المرجعية بمعناها التقليدي، نظراً لاعتمادها

على الاهتمامات المشتركة التي تجمع أشخاصا لم يسبق لهم بالضرورة التعرف على بعضهم البعض قبل الالتقاء الكترونيا بدل التقيّد بالحدود الجغرافية التي كانت تميّز المجتمعات التقليدية.

وعلى الرغم من تعدّد الفرص التي تُعَدُّ بها هذه المجتمعات، من انفتاح على العالم وفتح أفاق التواصل مع الآخرين، فإنها تنتهي في أحيان كثيرة بالعزلة والانقطاع الجزئي عن العالم الواقعي بالتدرج، إلى أن يصل الحد إلى درجة الانفصال التام كما هو حال الكثير من الأفراد، فالأفراد في المجتمع الافتراضي مشغولون دائما على الرغم من أن سبب انشغالهم عن التواصل بمن حولهم هو التواصل بمن حولهم، هذه المفارقة يلخصها كتاب للمؤلف شيري تيركل عنوانه "نحن معا، لكننا وحيدان، لماذا نتظر من التكنولوجيا أكثر مما ينتظر بعضنا من بعض"<sup>(12)</sup>. فالرسائل النصية القصيرة وما يكتب أو يتداول بين رواد الفايسبوك مثلا، تحوّل إلى سلوك يغني عن الزيارات المتبادلة بين الأصدقاء، كما أن صورة الأسرة التي تعيش في بيت واحد، فيما يهتم كل فرد من أفرادها في عالمه الافتراضي الخاص، لم تعدّ مجرد توقعات مستقبلية بل حقيقة مقلقة تحتاج إلى المزيد من الانتباه والاهتمام.

#### 4. الكيانات والوظائف الاجتماعية ضمن شبكات ومواقع التواصل الاجتماعي الافتراضية

في المجتمعات الافتراضية تبرز أهمية شبكات التواصل الاجتماعي، باعتبارها إحدى أهم تطبيقات الانترنت التي ظهرت مع ما يعرف بالجيل الثاني للويب، بحيث تتيح التواصل بين مستخدميها في بيئة افتراضية تجمعهم وفقا لاهتماماتهم وانتماءاتهم من خلال ما تقدّمه من خدمات، كإرسال الرسائل ومشاركة الآخرين ملفاتهم الشخصية والتعرف على أخبارهم التي يتيحونها للعرض<sup>(13)</sup>.

وبهذا أصبحت هذه العبارة تستخدم لوصف كل موقع على الشبكة العنكبوتية من شأنه تمكين مستخدميه من إنشاء أو إضافة صفحات جديدة في البيئة الافتراضية (مواقع التواصل الاجتماعي)، بما يساعد على خلق شبكة اجتماعية مترابطة بعضها مع بعض عبر الوصلات والروابط التي توفرها والتي تربط بدورها بمواقع أخرى للتواصل الاجتماعي.

تضم شبكة الانترنت العديد من هذه المواقع مثل الفايسبوك، تويتر، يوتوب، ماي سبيس، فليكر، انستجرام...، ويعدّ الموقع الاول أهمهما وأكثرها شهرة واستخداما وتأثيرا على مستوى العالم.

في فبراير من عام 2004 أنشأ ابن التاسعة عشر من العمر *مارك زوكربورغ* في غرفته بجامعة *هارفرد*، موقعا متاحا لطلبة الجامعات ثم لطلبة الثانوية ولعدّد محدود من الشركات، ليفتح في الأخير أمام أي شخص يرغب في فتح حساب على هذا الموقع، وعلى الرغم من أن نموه كان أبطأ من نمو مواقع أخرى- مقارنة بموقع *ماي سبيس* مثلا- إلا أنه سرعان ما تجاوزها عبر سلسلة من الابتكارات الأساسية، كميزة تقييم الأخبار، العثور على أشخاص لهم نفس الاهتمامات، تحميل الألبومات والصور وتزليل مقاطع الفيديو، تمكين المستخدم من التحكم في البيانات المتاحة للتبادل مع الأصدقاء بصورة تلقائية، أو منعهم من مشاهدة التحديثات التي تطرأ على أنواع محدّدة من الأنشطة التي يقوم بها المستخدم مثل التغيير في الملف الشخصي أو الرسائل المكتوبة على لوحات

الحائط الخاص به، فصل الملفات الشخصية إلى أجزاء ذات علامات تبويب، إضافة إلى فتح الموقع أمام المطورين الغرباء الذين سرعان ما طوّروا تطبيقات عديدة، مانحا إياهم شيئا يفعلونه وهذا ما ساعد على اجتذاب المزيد منهم إليه.

أصبح موقع الفاييسبوك الأكثر ازدحاما على شبكة الانترنت، وأقرب الأشياء التي نعرفها حتى الآن إلى شبكة اجتماعية، ففي عام 2011 أفاد عن وجود 800 مستخدم لديه، وكان تفوقه يكمن في فهم ما من شأنه أن يكتب النجاح لشبكة اجتماعية وفي إنتاج تقنية قادرة على التوسع إلى مستويات هائلة<sup>(14)</sup>، إلى درجة جعلت مارك زوكربورغ يعتبر موقعه بمثابة حركة اجتماعية وليس مجرد أداة للتواصل، متوقعا إزاحة البريد الإلكتروني والحلول محله، فضلا عن سيطرته على كل نواحي النشاط البشري على الشبكة الاجتماعية بوصفه دليلا لسكان العالم يتيح للأفراد العاديين أن يصنعوا من أنفسهم كيان عام من خلال المشاركة بما يرغبون فيه من معلومات حول أنفسهم، اهتماماتهم، مشاعرهم، صورهم الشخصية ولقطات الفيديو الخاصة بهم بما يجعل العالم مكانا أكثر انفتاحا<sup>(15)</sup>.

تفيد الإحصائيات الرسمية التي نشرها موقع إحصائيات الانترنت أن من يمتلكون حسابا على هذا الموقع بلغ إلى غاية 30 جون 2017، 1.979.703.530 مسجلا، أي ما يعادل 26.3% من سكان العالم البالغ عددهم حسب نفس المصدر 7.519.028.970 نسمة، بزيادة بلغت نسبتها 282.3% بين عامي 2010 و2017<sup>(16)</sup>. وهذا معناه أن شخصا واحدا من بين كل أربعة أشخاص تقريبا من سكان العالم لديه حساب على هذا موقع.

علما أن عدد مستخدمي الانترنت بلغ في هذه الفترة حوالي 3.885.000.000 مستخدماً<sup>(17)</sup>، وهذا ما يشير إلى أن أكثر من نصف مستخدمي شبكة الانترنت بقليل يملكون حسابا على هذا الموقع (50.95% من إجمالي مستخدمي شبكة الانترنت في العالم يمتلكون حسابا على موقع الفاييسبوك).

وتشير نفس الإحصائيات إلى احتلال المسجلين في الموقع من دول آسيا اعلي نسبة من إجمالي المسجلين في العالم بـ 37.2%، تليها دول أمريكا الجنوبية والكاربي بنسبة 18.7% من إجمالي المسجلين في العالم، ثم دول أوربا بنسبة 17.3%، أمريكا الشمالية بنسبة 13.3%، إفريقيا بنسبة 8.1%، دول الشرق الأوسط بنسبة 4.4%، وأخيرا استراليا بنسبة 1%.

تُبرز هذه التطورات كيف تحوّل الحضور الإنساني في بيئة شبكات التواصل الاجتماعي إلى نسق رقمي يستوطن في مصفوفة رياضية، تبوح قيمتها الرقمية بالكثير من التفاصيل التي يتسم بها الفضاء الاتصالي على صعيد تصميم واستخدام المعلومات والأدوات الاتصالية في نقل محتوى الخطاب إلى الآخر<sup>(18)</sup>، كما تبرز أيضا كيف يمكن لسرعة وكثافة التفاعلات الشبكية الاجتماعية أن تتحوّل إلى مفتاح لتشكيل الأفكار الجماعية وتحقيق الإجماع والتصرف<sup>(19)</sup>.

في حقيقة الأمر يعكس هذا التطور مظهرين من مظاهر التحول التي عرفتها العلاقات الاجتماعية في العالم الافتراضي:

فمن الناحية التقنية أصبح توسع شبكات التواصل الاجتماعي في هذه البيئة يستند على هندسة تكنولوجية متقدمة للبرمجيات والتطبيقات التي مكنت من توفير قدر من الكثافة الشبكية، متفوقة بذلك على التقنيات التقليدية السابقة التي كانت تعتمد على القرب الفيزيائي من أجل تفاعل أعضاء الجماعة مع بعضهم البعض، وبهذا تضاعفت فرص ووتيرة هذه العملية من خلال القضاء على أي تأخير قد يحدث على هذا المستوى، وأصبح بإمكان الأفراد الانخراط في محادثات عامة طول اليوم وبفترات انتظار لا تذكر وبمستويات عالية من المرونة بفضل اعتمادها على العقد الشبكية، سواء بالنسبة لتلك الشبكات التي تتيح تقنيات المناقشة، الحوار والتخاطب مباشرة، أو حتى بالنسبة لتلك التي تعتمد على تكنولوجيات لامتزامنة للاتصال تسمح بالردّ على الرسائل بعد ساعات أو أسابيع من وقت وصولها في حالة عدم تواصل المشاركين في نفس اللحظة.

من الناحية الاجتماعية، لم تفلح التطورات على المستوى التقني في تجاوز عقبة المكان الفيزيائي واستبداله بفضاء رقمي مفتوح فحسب، بل نجحت أيضا في إحداث تغييرات على مستوى بنية، هيكل، ونسيج الجماعات الاجتماعية، وهذا ما أدى إلى بروز أنماط مختلفة منها، ينخرط أعضاؤها في مواقع التواصل الاجتماعي مع ما يتوافق مع انتماءاتهم وأفكارهم، يتفاعلون إلى حدّ كبير مع بعضهم البعض أو مع أعضاء الجماعات الأخرى.

وبهذا أسهمت مواقع التواصل الاجتماعي في تطوير كيان اجتماعي مستحدث أطلق عليه بعض الباحثين اسم "الجماعات المتخيلة"<sup>(20)</sup>، يتركب من تكتلات فردية يشترك أعضاؤها في مجموعة من المبادئ والقيم والاهتمامات المشتركة، ينتشرون على رقعة جغرافية مفتوحة ويتميزون بأفكار وأهداف متقاربة تمهّد لقيامهم بعملية تقاسم المعرفة والخبرات والاشترك في مضامينها أثناء حضورهم في فضاء شبكات التواصل الاجتماعي.

في هذا الفضاء يتشكل بناء شبكي يربط بين مجموعة من الحزم الاجتماعية ممثلة في الأفراد والجماعات وحتى الكيانات الكبرى مثل المؤسسات والشركات، ويمكن لهذا البناء أن يكون محليا وهنا يظهر دور الجماعات المحلية التي تخلق لنفسها وحدات داخل التفاعلات العالمية، تركز اهتماماتها على موضوعات تخص جماعة بذاتها، في إطار اهتمام داخلي، كما يمكن أن يتميز بالعالمية (بناء شبكي عالمي) أين تنصهر كل الأقليات والتباينات الثقافية داخل بوتقة التفاعل العالمي للشبكة دون التركيز على جماعة إثنية بعينها أو أقليات معينة<sup>(21)</sup>.

يشير "مايكل سايلور" إلى تطور الشبكات الاجتماعية في الفضاء الافتراضي بما يشبه نوع من المتعضية العالمية بحيث تُوسّع قاعدة معرفتها مع كل مشترك جديد الأمر الذي يؤدي إلى الاتصال بذكاء جمعي يتمتع بوعي عالمي بالزمن الحقيقي، واكتساب قدرات مفاجئة بإمكانها توليد سلوكيات جديدة غير متوقعة<sup>(22)</sup>.

على نقيض الفرضيات المرتبطة بالبناء الشبكي في التنظير التقليدي، يرى بعض الباحثين<sup>(23)</sup> أن التفاعلات المتبادلة داخل هذه البنى الاجتماعية لا يشترط سريانها في الكيان الشبكي ككل، لأن التفاعل الاجتماعي في مستواه

الافتراضي قد يتم بين الأفراد بعضهم ببعض، أو بين الجماعات، وقد يُهمل، كما قد يصل الأمر إلى غيابه كلياً بين البعض منهم.

تنوع في هذا النسيج الاجتماعي العلاقات التي تربط الأفراد، بين علاقات تسعى إلى تبادل موارد غير ملموسة (معلومات)، وتلك التي تعزز الانتماء إلى جماعة وترفع مكانة الفرد بين الآخرين، أو علاقات لبناء صداقة وتعارف مع أفراد تجمعهم قواسم فكرية أو شخصية، كما يمكن أن تنشأ هذه العلاقات من أجل تمضية الوقت والترفيه عن الذات.

في كل هذا الأنواع من العلاقات تبرز أهمية "الاعتماد المتبادل" بين المنخرطين بما يؤثر على المعتقدات والقرارات الشخصية والجماعية، مع الأخذ بعين الاعتبار اختلاف درجة هذا الاعتماد باختلاف قوة الروابط وشدة دوافع استخدام شبكات التواصل الاجتماعي، فالدوافع الترفيهية تختلف مثلاً عن الدوافع الاجتماعية .

##### 5. العلاقات والجماعات الاجتماعية في فضاء التواصل الاجتماعي الإلكتروني: رؤية نقدية

بفضل الاستخدام الأمثل لإمكانيات التواصل التي تحققت نتيجة التطور التكنولوجي في ميدان الاتصال، مكّنت مواقع التواصل الاجتماعي عبر شبكة الانترنت من تعزيز فرص انسجام فئات اجتماعية داخل الفضاء الافتراضي على اختلاف طوائفها ومذاهبها الدينية والفكرية، كما ساهمت في خلق نسيج اجتماعي من نوع خاص يتميز بكونه أكثر ثراءً وانفتاحاً على العالم الخارجي، وأكثر قدرة على التعايش والاعتراف بالآخر، على الأقل من الناحية الشكلية. في مقابل ذلك شكّلت التغيرات التي طرأت على هذا المستوى هاجساً لدى الكثير من الباحثين والمفكرين بسبب تخوفهم من تحوّل التقنية إلى قوة سلبية لإرادة المجتمعات والإنسان معاً.

في هذا الصدد يشبه الكاتب "توماس فريدمان" المجتمع الإنساني اليوم بـ "قطاع الكتروني" يرتبط بعلاقات ثابتة عبر "الكيبيل" وبترددات الومضة الكهربائية، وأن كل ذلك خلق إحساساً زائفاً بالاتصال والحميمية، وكل تلك التكنولوجيا أدت إلى تنميط حياتنا، إذ أننا بدل أن نؤسس علاقات ومجتمعات متكافئة وحيوية التفاعل، فإننا وعلى سطح تلك المنظومة التواصلية قد بنينا جزراً معزولة تحكمها علائق مضطربة ويسيطر عليها الخوف من المستقبل<sup>(24)</sup>.

من ناحية أخرى، قد يتحوّل الاستخدام اللامعقول لمواقع التواصل الاجتماعي إلى تهديد مباشر من شأنه تحطيم كيان العلاقات الاجتماعية في الحياة الواقعية التي تتم وجهاً لوجه، ويحدّث قطيعة بين الأفراد تؤدي إلى زوال النسيج الاجتماعي التقليدي، وتعويضه بآخر افتراضي يفتقر إلى الجوار والتقارب، ويسيطر عليه التفاعل الآلي (إنسان-آلة).

كما تساهم مواقع التواصل الاجتماعي حسب بعض الباحثين، في خلق نوع من العزلة الاجتماعية لدى الأفراد<sup>(25)</sup> نتيجة تواجدهم لفترات زمنية طويلة ضمن فضاءات التواصل الاجتماعي الإلكترونية. فإذا كانت هذه المواقع تسمح بانخراط الأفراد بكثافة ضمن جماعات مختلفة في البيئة الرقمية فإنها تعبر في وجهها الآخر عن

انعزالية شديدة بينهم وبين العالمي الحقيقي المحيط بهم ، فالفرد أصبح يعيش وحيدا بالرغم من تواجده في جماعة كبيرة العدد ينتشر أفرادها ضمن حيز جغرافي غير محدود.

ومما لا شك فيه أن شبكات التواصل الاجتماعي مغرية وتجذب الشباب بشكل خطير جداً بحيث ينتمي بهم الأمر إلى الإدمان عليها وبالتالي عزلهم عن المجتمع، خصوصا بالنسبة لأولئك الذين يواجهون الفراغ والبطالة والعجز والإحباط<sup>(26)</sup> ونتيجة التواجد الدائم والغير مسيطر عليه على مواقع التواصل الاجتماعي تتفكك العلاقات الاجتماعية التقليدية مثل علاقة القربى والنسب والزمالة وعلاقات الجوار والعمل... وتختزل كلها في علاقة الصداقة المرتبطة بالترجسية واستعراض الذات لغايات مختلفة.

كما قد يؤدي ذلك إلى تفكك العلاقات الاجتماعية حتى داخل الأسرة الواحدة، بما يؤدي إلى محدودية الاتصال داخل هذا الكيان الاجتماعي الذي يعيش أفراده تحت سقف واحد، وبالتالي يفقد أهميته ووظيفته بفقدان عنصر التفاعل بين أعضائه، ويتحوّل تبعاً لذلك دور الآباء إلى حراس يقتصر دورهم، في أحسن الأحوال، على مراقبة أبنائهم أثناء استخدامهم لمواقع التواصل الاجتماعي.

تتوافق هذه النظرة مع نتائج الدراسة التي قام بها *فنست* .م حول الفاييسبوك وانتشار المجتمعات التكنولوجية في سنة 2010، التي استهدفت قياس تأثير هذا الموقع على العلاقات الاجتماعية في المجتمع البريطاني، بحيث توصلت إلى أن أكثر من نصف الأشخاص البالغين الذين يستخدمون موقع الفاييسبوك يقضون وقتاً أطول على هذا الموقع أكثر من الوقت الذي يقضونه مع أفراد أسرهم أو أصدقائهم الفعليين<sup>(27)</sup> ، ونفس الأمر ينطبق مع الدراسة التي قمت بها *نجلاء محمود رؤوف السيد المصليحي* حول الفاييسبوك ورأس المال الاجتماعي في مصر، التي أوضحت نتائجها أن ما يقارب 60 % من العينة تقضي من ساعة إلى أكثر من ثلاث ساعات يومياً على هذا الموقع، ومن ثم فقد يصبح لدى الكثير من مستخدميها أشخاصاً بدلاً لتكوين علاقات اجتماعية معهم، وهم في الواقع موجودون عبر الموقع ولا توجد حاجة للتفاعل معهم وجهاً لوجه. وبالتالي تضعف العلاقات الاجتماعية المباشرة مع الأصدقاء والأقارب في ظل الواقع الحياتي المعاش والملموس<sup>(28)</sup>.

في هذا الوضع تتحوّل القضايا الاجتماعية التي كانت تناقش مع العائلة والأسرة أو مع جماعة الأصدقاء في الفضاءات التي تعتمد على القرب الفيزيائي للأفراد إلى مواضيع تطرح في فضاء رقمي يختلف تماماً عن سابقه، ومع أشخاص لا تجمعنا بهم سوى روابط سطحية.

إضافة إلى ذلك، توفر مواقع التواصل الاجتماعي فضاءً للأفراد الذين يرغبون في الهروب من العلاقات الاجتماعية المباشرة، خاصة بالنسبة لأولئك الذين يفتقدون إلى آليات التعامل الاجتماعي مع الغير والقدرة على الاندماج والتكيف في المحيط الذي يعيشون فيه، ولهذا يمكن وصف بعض العلاقات التي تنشأ بين الأفراد على مواقع التواصل الاجتماعي بأنها علاقات تفتقد إلى الجدّية، كما أنها مهمة وغير مأمونة العواقب.

فإذا كانت مواقع التواصل الاجتماعي قد أتاحت لكثير من الأشخاص الفرصة في المجال الاجتماعي لبناء أواصر العلاقات فيما بينهم، فإنها في الوقت نفسه تدفع البعض منهم، ومن بينهم من يرتبط بعلاقات اسرية مشروعة وسوية، إلى البحث عن علاقات غير أخلاقية، الأمر الذي يؤثر سلباً على علاقاتهم الحقيقية، وتكمن النتائج السلبية للعلاقات الغير الأخلاقية في مواقع التواصل الاجتماعي من الناحية الاجتماعية في كونها تؤدي إلى تحطيم البناء الاجتماعي المحكم والمنسجم للفرد والجماعة والمجتمع، فضلاً عن خطورتها على حيوية وفعالية المنظومة المرجعية الفردية والاجتماعية للكيان الاجتماعي.

#### خاتمة

إن التحليل السوسولوجي للعلاقات والجماعات الاجتماعية عبر مواقع وشبكات التواصل الاجتماعي ينبغي أن يعتمد على نظرة متوازنة للجوانب التقنية والاجتماعية دون تغليب لإحدهما على الأخرى، وربما هذا ما سيساعدنا أكثر على فهم كيفية تأثير التطور التكنولوجي على بناء ووظائف الجماعات الاجتماعية في العالم الافتراضي.

فالكينانات والظواهر الاجتماعية التي تأسست وتطوّرت عبر مواقع الويب اعتماداً على البرمجة الآلية، والتي أدت فيما بعد إلى تطوّر مجتمع افتراضي، تمثل أولاً وقبل كل شيء مرحلة من مراحل التطوّرات العديدة التي تمرّ بها المجتمعات، ومظاهر التغيير التي طرأت على طرق وأساليب تواصل الأفراد مع بعضهم البعض، الذي تمخض عنها أشكال مستحدثة من التفاعل الإلكتروني، لا تعكس سوى مظهراً من مظاهر استخدام التقنية التي ساهم المجتمع نفسه في تطويرها، وبالنظر إلى الوتيرة المتسارعة التي تتطوّر بها المجتمعات التكنو- اجتماعية يمكن أن نتنبأ مستقبلاً بطرق و آليات جديدة تعمل على تنظيم المجتمع وفقاً لمستوى التطوّر التقني المنجز في مراحلها اللاحقة.

وشأنها شأن أي تقنية في أي مجال، ترتبط النتائج المترتبة عن استخدام مواقع وشبكات التواصل الاجتماعي - سلبية كانت أم ايجابية - إلى أبعد الحدود بطريقة استخدامها والأغراض التي تُوظف من أجل تحقيقها، فالاستخدام السليم والمعقول لهذه المواقع يؤدي حتماً إلى إثراء التواصل والتفاعل الإنساني بين الأفراد والكينانات المتباعدة مكانياً، كما يؤدي إلى تعزيز العلاقات الشخصية وتوسيع الشبكات الاجتماعية القائمة فعلاً، في حين يؤدي الاستخدام السيئ، كالإدمان عليها مثلاً، إلى العزلة الاجتماعية وتفكك نسيج الحياة الاجتماعية والتقليل من فرص التفاعل والتواصل داخل الأسرة الواحدة.

#### الإحالات والهوامش:

- 1 - غريب محمد سيد أحمد، المدخل في دراسة الجماعات الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1979، ص 10 - 11.
- 2 - المرجع نفسه، ص 13.
- 3 - حسين عبد الحميد أحمد رشوان، المجتمع دراسة في علم الاجتماع، ط 4، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2005، ص 91 - 92.
- 4 - جمال مجدي حسنين، سوسيولوجيا المجتمع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2005، ص 101.

- 5 - غريب محمد سيد أحمد، مرجع سبق ذكره، ص 13.
- 6 - حسين عبد الحميد أحمد رشوان، مرجع سبق ذكره، ص 92.
- 7 - معن خليل عمر، البناء الاجتماعي أنساقه ونظمه، ط 1، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان (الأردن)، 1996، ص ص 77 - 78.
- 8 - غريب محمد سيد أحمد، مرجع سبق ذكره، ص 123.
- 9 - علي محمد رحومة، علم الاجتماع الآلي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير 2008، العدد 347، ص ص 66-67.
- 10 - صلاح عبد الحميد؛ يمى عاطف، الإعلام والفضاء الإلكتروني، ط 1، أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، الجزيرة، 2015، ص 129.
- 11 - محمد علي فرح، صناعة الواقع، الإعلام وضبط المجتمع أفكار حول السلطة والجمهور والوعي والواقع، ط 1، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، 2014، ص 230.
- 12 - صلاح عبد الحميد، يمى عاطف، مرجع سبق ذكره، ص 130.
- 13 - علي عبد الفتاح كنعان، الإعلام والمجتمع، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، عمان (الأردن)، 2014، ص 170.
- 14 - مايكل سايلور، (تر) أحمد حيدر، مراجعة وتحرير مركز التعريب والبرمجة، تسونامي التقنيات الجواله كيف سيغير الذكاء النقال كل شيء، ط 1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2013، ص 176.
- 15 - علي عبد الفتاح كنعان، مرجع سبق ذكره، ص 173.
- 16 - الموقع الرسمي لإحصائيات الانترنت: [www.internetworldstats.com/facebook.htm](http://www.internetworldstats.com/facebook.htm) اطلع عليه يوم: الجمعة 1 ديسمبر 2017.
- 17 - المرجع نفسه.
- 18 - حسن مظفر الرزق، فضاء التواصل الاجتماعي العربي جماعته المتخيلة وخطابه المعرفي، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2016، ص 81.
- 19 - مايكل سايلور، مرجع سبق ذكره، ص 175.
- 20 - حسن مظفر الرزق، مرجع سبق ذكره، ص 84.
- 21 - جبريل بن حسن العريشي، سلمى بنت عبد الرحمن محمد الدوسري، الشبكات الاجتماعية والقيم رؤية تحليلية، ط 1، الدار المنهجية للنشر والتوزيع، عمان (الأردن)، 2015، ص 29.
- 22 - مايكل سايلور، مرجع سبق ذكره، ص 180.
- 23 - جبريل بن حسن العريشي، سلمى بنت عبد الرحمن محمد الدوسري، مرجع سبق ذكره، ص 29.
- 24 - صباح ياسين، الإعلام حرية في انهيار، ط 1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2010، ص ص 107-108.
- 25 - جبريل بن حسين العريشي، سلمى بنت عبد الرحمن محمد الدوسري، مرجع سبق ذكره، ص 104.
- 26 - أحمد مسعودان؛ العيد ورم، استخدام وسائل الاتصال والإعلام الجديدة وعلاقته بالعزلة الاجتماعية دراسة تحليلية لتأثيرات شبكات التواصل الاجتماعي على التواصل الأسري، مجلة كلية التربية، العدد 51، جامعة الأزهر، الجزء 1، ديسمبر 2012، ص 744.
- 27 - محمد درويش درويش، القيم الأخلاقية للتواصل الاجتماعي عبر شبكة الانترنت من منظور إسلامي، مجلة كلية التربية، الزقازيق، العدد 80، يوليو 2013، ص 336.
- 28 - نجلاء محمود رؤوف السيد المصباحي، الفيس بوك و رأس المال الاجتماعي في مصر دراسة سوسيولوجية - ميدانية، مجلة شؤون اجتماعية، العدد 115، خريف 2012، السنة 29، ص 138.